جيتا

بقلم

الأستاذ محمد إسماعيل الندوى

مدرس اللغة الأردية بمدرسة الألسن العليا

الحضارة الهندية من أقدم حضارات العالم وفلسفتها من أعرق الفلسفات ، وديانتها من أكثر الديانات أتباعاً إذ يدين بها أكثر من أربعمائة مليون من البشر وبملك أبناء هذه الديانة من الكتب الدينية والفلسفية والأدبية ما يضارع أعظم الكتب العالمية الأصيلة ذات القيمة العظيمة. ولسنا هنا بصدد دراسة هذه الكتب جميعاً ، بل إنما نقوم بجولة يسيرة حول كتاب من الكتب الدينية فحسب إذ أن الوقت لا يتسع لدراستها جميعاً . وقد آثرنا أن تكون دراستنا هذه لكتاب جيتا الذى يصف العقائد الدينية ومراحل تطور الفكر الدينى للهندوكيين .

وفى المرحلة الأولى للحياة الفكرية لدى الهندوكيين نجد عدداً من الكتب تسمى « ڤيدا » وأخصها ذكراً « رج ڤيدا » (Reg Veda) وآثر ڤيدا (Atharveda) و « ياجور ڤيدا » (Yajuvveda) . أما الأول — وهو « رج ڤيدا » — فهو من أقدم الكتب قاطبة ، وهو الذى يصف الحياة الاجتماعية الأولى لطائفة الآريين الهنود ، وحياتهم البدوية ، وآرائهم البسيطة فى الله وفى الكون والإنسان « وقد ألف هذا الكتاب فى سنة ٣٠٠٠ ق.م تقريباً . وقد سمى المؤرخون العهد الذى يبتدئ من هذا التاريخ إلى سنة ١٥٠٠ ق.م[1] بعصر ڤيدا .

ثم يبتدئ عصر يوبانيشاد (Upanishad) الذى ينتهى فى القرن الخامس قبل الميلاد وليس هذا العهد فى الحقيقة إلا امتداداً لعصر ڤيدا ، حيث نجد الحياة الفكرية للهندوكيين تسير مع موكب الروحية طوراً ومع الإلحاد والبعد عن القيم المعنوية طوراً آخر . ففى هذه المرحلة الخطيرة من الحياة الفكرية حيث تصادمت الفلسفة الدينية مع نزعات متضاربة وأفكار مضطربة ظهرت حركة دينية لبعث روح جديدة فى الفكر الهندوكى على يد « كرشن » أعظم شخصية أسطورية شهدها التاريخ الهندوكى . لقد سجل كتاب « جيتا » ما ورد على لسانه من أفكار وفلسفة ومناقشات تحتل مكان الصدارة من حيث التفكير والأصالة ، وتضارع أعظم الفلسفات العالمية التى استفاد منها الملايين فيما بعد . ففى الحقيقة أن كتاب « بها جاوات جيتا » (Bhagavat-Gita) الذى يطلق عليـه اختصارا جيتا منتزع من كتاب مها بهارتا Maha Bharata أكبر ملحمة للحروب الدينية الأسطورية التى دارت رحاها حوالى سنة ٩٥٠ ق.م . وقد نشبت هذه الحروب بين ملوك أسرة واحدة انشقت إلى قسمين فانضم الهنود كلهم من أمرائهم ووزرائهم وشعبهم إلى طرف يؤيدونه وينصرونه ويعطفون عليـه فى حين انحاز

(١) Philosophy of India by Dr. Radha Khirishna, p. 17.

« كرشن » وهو من كبار الأبطال الهنود إلى طرف آخر يتزعمه « أرجن » .

ويشتمل جيتا على ١٨ باباً من ملحمة مها بهارتا (أى من باب ٢٥ إلى ٤٢) ويعتبر مها بهــارتا (Maha Bharata) من هذه الناحية أقدم ملحمة عرفها التاريخ . وهى تصور المعارك التى دارت بين پاندڤاس (Pandvas) وكاراڤاس (Karavas) وهما طرفان مع أن كلهم أخوة وأعمامهم . فالأخوة وأزواج أخواتهم كانوا فى جانب وأعمامهم فى جانب آخر . هجم كاراڤاس وصحبه على عائلة باندڤاس وقتلوهم وشردوهم واستولوا على ممتلكاتهم وأحرقوا أثاثهم وحاولوا قتل من بقى منهم بالسم . وبهذا ذهبت قوتهم واندثرت آثارهم وطمست معالمهم إلى الأبد . ولذلك سمى « جيتا » الفاتحين الغزاة « أتاتايناه (Atatayinah) » أى الطغاة البغاة المعتدون .

وهذا الكتاب فى الحقيقة عبارة عن المحادثات والمناقشات التى دارت بين « كرشن » و « ارجن » — وهو الآخر من أبطال الهندوكيين مثل كرشن — يبتدىء أول باب لهذا الكتاب بحديث عن نتائج هذه المعارك الدموية ويقال : إن سنجايا (Sanjaya) — أحد رجال الهندوكيين آنذاك — حكى هذه المحادثة لرجل آخر يدعى « دهرتارستا » (Dhartavastra) بعد عشرة أيام فقط من انتهاء المعركة وادعى أنه سمعها من أبطال الملحمة أنفسهم . وذكر مؤلف آخر لكتاب بهسما پارڤا (Bhisma parva) فى الباب الثانى من كتابه أن ڤياساً (Vyasa) أثر فى روح سنجايا (Sanjaya) ومنحه قوة معنوية استطاع بها أن يشاهد ميدان الحرب عن كثب ويرى الواقع بعينيه ويسمع المحادثة بأذنيه ويحكيها للناس .

لقد راودت الشكوك كثيراً من الناقدين فى صحة انتساب هذه المحادثة إلى كل من « كرشن » و «ارجن» بدليل استحالة حدوث حوار طويل دار فى سبعمائة أمر من الأمور وهما لم يزالا فى ميدان المعركة لأن مثل هذه المعركة الدامية لا تتيح الفرصة لمثل هذه المحادثة ، كما أن الناقدين لا يتفقون على إيراد النقاش فى سبعمائة أمر ، فذهبت طائفة منهم إلى أنهما لم يتحدثا إلا فى مائة أمر ، وطائفة ثانية ذهبت إلى حصر المسائل التى دار فيها النقاش فى ٣٦ مسألة ، وفريق ثالث ذهب إلى أنهما لم يتحدثا إلا فى ١٨ أمراً بينما ذهبت طائفة رابعة إلى إيراد سبعة أمور فقط . وهذه الطائفة الأخيرة التى ذهبت إلى أن المحادثة بين كرشن وارجن لم تجر إلا فى سبعة أمور ترى أن المتأخرين هم الذين أضافوا اليها فيما بعد إضافات كثيرة حتى أصبحت مجموعة كبيرة تشتمل على ١٨ باباً . وأيضاً يرى بعضهم أن الحوار لم يحدث بالمرة ولكن مؤلف مهابهارتا عرض هذه المعارك فى هذه الصورة البديعة والأبيات الغنائية الجميلة التى تستولى على مجامع القلوب وتأسر النفوس ليحث الناس على التمسك بالمبادىء الدينية .

وقال الباحث الهندوكى الكبير « تلك » الذى يعتبر من كبار المتخصصين فى دراسة « جيتا » إن من أراد الاستفادة من تعاليم « جيتا » ومبادئه الروحية لا يلتفت إلى جانبه الشكلى ولا يخوض فى معارك النقاش حول شخصية كرشن وارجن ومحادثاتهما ومشاهدة «سنجايا» بعيونه الروحية للحوادث ، ولا يلتفت إلى شىء يتعلق بالبحث عن صدق هذه الأسطورة . لأن هذه الأبيات لم يقلها أحد من هؤلاء الأبطال المذكورين إنما قالها « ڤياساً » (Vyasa) [1] .

وذكر المهاتما غاندى الذى عاج هذا الموضوع فى إحدى مقالاته : «إن الشخصيات الواردة فى «مها بهارتا» لا يمكن لنا القول فيها على وجه التأكيد أنها شخصيات تاريخية حقيقية ، ولكن الهدف الأساسى فيها العبرة والموعظة وإبراز المبادىء السامية [2] » .

---

(١) Gita Rahasya by B.G. Tilak.

(٢) The selected writings of Mahatma Gandhi.

وكتاب جيتا يفوق إخوته « ڤيدا » و « يوبانيشاد » من نواحي عديدة . لأنه يشرح العقائد الهندوكية شرحاً وافياً . ومن المعروف أن عقيدة التناسخ من أهم وأقدم العقائد الهندوكية ، وهي تتضح بأبرز معالمها في جيتا. ولذلك قال غاندي(١) في مقالته عن جيتا : إنه يعطي الانسان الطموح إلى الله . لأن الانسان لا يستريح ولا يطمئن إلا إذا استطاع أن يتمثل بمظهر الله ولا يمكن له التشابه به تشابهاً كلياً . وبهذا تتحقق رغباته التي تختلج في صدره ،وهذا ما نعبر عنه بالادراك النفسي . ولا شك أن مؤلف جيتا لم يفصح لنا عن هذه الغاية بكلمات واضحة ولكنه مهّد لنا السبيل لكي نصل بجهودنا إلى تلك الغاية العظمى . وهذا ما فهمته من دراستي لنصوص جيتا وعباراته .

ويبدو لنا من قراءة الباب ٢ :٤٢ من « جيتا » أن الهنود في ذلك الحين كانوا يؤمنون بـ « ڤيدا » إيماناً قوياً إلى درجة أن كل ماسوى «ڤيدا» لم يكن ينال لديهم أي اهتمام، وكانوا يستهدفون من ذلك دخول الجنة والتمتع بما فيها من الملذات والنعيم . وهذا الكلام ينبهنا إلى أن عقيدة التناسخ في ذهن الهنود لم تترسخ آنذاك بل بدأت تتكون عندهم هذه الفكرة ولم تظهر بأكمل وجهها . بل الجنة والتمتع بالملذات هي الفكرة الغالبة التي كانت تعلق في أذهانهم . ثم ظهرت عقيدة التناسخ على لسان «كرشن» و « ارجن » على أكمل وجهها في « جيتا » الذي تم تأليفه حوالي ١٥٠ ق.م تقريبا . وهنا ينبغي لنا أن نقف وقفة يسيرة حتى نتمكن من السير في هذا التجوال العريض بين الأسفار الطويلة من البحث .

لقد أورد البيروني : «كما أن الشهادة بكلمة الإخلاص شعار إيمان المسلمين ،والتثليث علامة النصرانية كذلك التناسخ علم النحلة الهندية. فمن لم ينتحله لم يك منها ولا يعد من جملتها (٢) وكذلك أورد باحث هندوكي معاصر هو « سري جي ديال كوئند في كتابه « الآخرة والتناسخ » (باللغة الهندية) : « أن التناسخ عقيدة علقت في أذهان الهندوكيين منذ أقدم العصور . والهند هي الأرض الأصيلة لها » . وبالبحث والتحقيق في هذا الموضوع نجد أنها وجدت لدى الأمم الأخرى أيضاً منذ أقدم العصور ولكن في ضوء الأدلة ليس من البعيد أبداً أن نحكم أنها هندية قدماً واصالة ، وقد يقال إنها وجدت لدى الفراعنة أيضاً منذ أقدم العصور وفي ذلك قول الدكتورة سهير القلماوي : « فاذا أضفنا أن عقيدة التناسخ التي توجد في الهند من قديم الزمن وجدت أيضاً في مصر عرفنا أهم عنصر عمل في إيجاد قصص على ألسنة الحيوان منذ قديم الزمان . ذلك أن التناسخ يرى أن الروح الانساني وهو الذي تعنى به البشرية وتعتقد أن كل ما خلق من أجله يمكن أن يسكن جسم حيوان ،واذن فهو يتصرف تصرفه. ولكنه في الوقت نفسه روح انساني فهو إذن يتكلم ويفكر ،وفي تصرفاته حياة يلذ للانسان أن يعرفها وأن يعرف عنها ، فيأتي القصاص ويشبع كما يشبع من قديم حب الاستطلاع هذ والخيال معه »(١) .

وإذا كان الأمر كذلك فان عقيدة التناسخ انتقلت إلى مصر عن طريق الهند ، لأن عقيدة الآخرة هي التي ظلت عقيدة خالدة لدى الفراعنة على مدى الدهر (٢) .

وأيضاً يذكر البيروني : « أن اليونانيين اتفقوا مع الهندوكيين في عقيدة التناسخ وذهب سقراط إلى هذه النظرية (٣) » .

ثم انتقلت عقيدة التناسخ الى ايران عن طريق الهند أيضاً وفي ذلك قول البيروني : « وكان ماني (مؤسس الدين في ايران) قد نفي إلى ايرانشهر (أي

(١) The Selected Writings of Mahatma Gandhi.

(٢) تحقيق ماللهند ص ٢٤ .

(١) ألف ليلة وليلة ص ١٩٩ .

(٢) تاريخ الحضارة المصرية ج ١ ص٢١٥ (مطبوع في وزارة الثقافة بالقاهرة)

(٣) تحقيق ما للهند ص ٢٨

إيران) فدخل أرض الهند ونقل التناسخ منهم إلى نحلته [1] .

وفى العصر العباسى حين التقت الثقافتان الهندية والعربية انتحلت بعض الفرق الاسلامية هذه العقيدة مثل البيانية والحباحية والخطابية والراوندية والقدرية والنظامية[2] ويرى البيرونى أن بعض المتصوفين المسلمين أيضاً ذهبوا إلى هذه العقيدة فى بعض معتقداتهم[3] .

وعلى كل ، فقد ظهرت عقيدة التناسخ بأجلى مظاهرها فى جيتا ولا نرى تلك الظاهرة واضحة كل الوضوح فى « ڤيدا » وحتى البيرونى لم يستدل على وجود عقيدة التناسخ لدى الهندوكيين إلا بنصوص «جيتا» مثل قول « باسديو » لـ « أرجن» الذى يحرض به على القتال وهما بين الصفين : « إن كنت بالقضاء السابق . مومنا فاعلم أنهم ليسو ولا نحن معاً بميتين ولا ذاهبين ذهابا لارجوع معه . فان الأرواح غير مائتة ولا متغيرة وإنما تتردد فى الأبدان على تغاير الإنسان من الطفولة إلى الشباب والكهولة ثم الشيخوخة [4] .

وكذلك نجد فى « جيتا » و « يوبانيشاد » أن التشبيهات بالبقرة وألبانها تتكرر بين حين وآخر مما أدى إلى الاجتذاب والشوق إليها فى اندفاع وإعجاب . ومن هنا بدأ الحب والتقدير والاعجاب بالبقرة لدى الهندوكيين الذى استمر حتى الآن . وهذه الظاهرة نجدها فى مصر القديمة أيضاً حين كان المصريون يقدسون البقرة بل أصبحت البقرة لديهم رمزاً لآلهة الحب والجمال والسماء [5] . وبهذا نجد تقارباً فكريا وعاطفيا وعقائديا بين المصريين القدماء والهندوكيين . وإن لم نر أدلة قاطعة جلية تدل على التجاوب الفكرى والثقافى بين الأمتين فى هذه الآونة .

وهناك بعض الحقائق فى « جيتا » لا نجدها فى الكتب المماثلة له لدى الأمم الأخرى . وأول شئ فى هذا الصدد أن « جيتا » يصور الحياة الدينية فى عصره والعصور التى سبقته، ثم يوجه النقد إلى تلك الحياة التى لا تتلاءم مع الطبيعة البشرية والقوانين الإلهية فى نظر جيتا . وذلك أن عصر « يوبانيشاد » الذى بدأ قبل ظهور « جيتا » بسنين يصور لنا ظواهر متضادة وأفكاراً متضاربة ونزعات مختلفة لا يجمعها رباط ولا تتجمع فى نطاق ، بل مبعثرة ومشتتة مثل الحياة المادية التى لا علاقة لها بالأفكار والمبادئ الروحية وبجانبها نجد الحياة الدينية الزاهدة التى تنادى بالرهبانية والابتعاد عن زينة الدنيا وزخارفها كما ظهرت فى نفس هذا العصر بوأدر « فلسفة اليوجا » التى بنيت عليها النزعات الصوفية فيما بعد ، كما ظهرت نزعات تعبر عن الحياة المتشائمة التى لا أمل فيها ولا أمانى ولا طموح [1] . وزد على ذلك الوثنية الغالبة وعبادة الأصنام . فجيتا يصور هذه المظاهر كلها كما يصور العبادات والطقوس الدينية والمظاهر العامة والمراسيم والتقاليد .

ومن الظواهر الوثنية والطقوس الموجودة فى عصر « جيتا » — كما يصورها لنا — أن عباداتهم كانت عبارة عن توزيع السمن وما يماثله من الأشياء وشرب نوع من العصير . وكانوا يعبدون الأصنام التى كانت بمثابة الآلهة واتخذوها ليتقربوا إلى الله زلفى . ولم يستهدفوا من ذلك إلا إرضاء آلهتهم حتى يتمتعوا بحياة سعيدة طيبة . والقرابين أيضاً ما كانوا يقدمونها للآلهة إلا لنفس هذه الأغراض . وكذلك كانت الزهـور

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٢٤
(٢) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٢٥٣
(٣) تحقيق ما للهند ص ٢٤
(٤) نفس المصدر السابق ص ٢٤
(٥) راجع مقالة الأستاذ نجيب ميخائيل فى تاريخ الحضارة المصرية ا : ٥١٧

(١) راجع هذه التفاصيل :
The Indian Philosophy, p. 67 and
The wonders that was India by Bashan, p. 141.

والأوراق والفواكه مما كانت تؤدى بها مراسيم العبادات وطقوسها . ونضيف إلى ذلك عقيدتهم فى العفاريت والأرواح واعتقـادهم فى الأوهام والخرافات ، وهذه الأسباب أيضاً دعتهم إلى تقديم القرابين .

وزد على ذلك ما يعطى جيتا من صورة صادقة للأحزاب والطوائف المختلفة والأفكار الغريبة المضادة لدعوة « جيتا » مما أدى به إلى مواجهة صعوبات كبيرة فى سبيل نشر دعوته وفلسفته ومباديه . لأنها كانت فى الحقيقة ثورة على كل ما كان شائعاً من الأفكار والنزعات والتقاليد البالية ، ودعوة جديدة تقوم على الأسس السليمة التى تتلاءم مع الظروف والبيئة .

وكان كرشن — أعظم شخصية ظهرت فى الهندوكيين — بطل هذه الدعوة كما يتجلى ذلك من دراسة « جيتا » . قال فيه وفى دعوته أعظم شاعر إسلامى فى الهند ، هو الدكتور محمد إقبال : «سيذكر التاريخ كرشن» إلى الأبد بغاية التقدير والاحترام إذ أن هذه الشخصية العظيمة نقدت فلسفة أمتها وبلادها الداعية إلى الحياة السلبية بأسلوب رائع ومنهج مشوق وعرفتهم أن العمل والجهود من العناصر الهامة فى الحياة ونواميس هذا الكون . فلا مناص منها لإنسان أبداً . فلا ينبغى للانسان أبداً أن يترك الدنيا كلها ويبتعد عنها ابتعاداً . فترك العمل فى الحقيقة لا يعنى سوى الاستغناء وعدم المبالاة بالنتائج التى تترتب على أعمال الإنسان وجهوده . وقد سلك نفس هذا الطريق بعده « سرى رامانج » أعظم زعيم هندوكى . ومما يؤسف له أن « سرى شنكر آتشارى »[1] الذى جاء أخيراً لم تعجبه هذه الفلسفة فرجع من جديد إلى الأفكار القديمة السلبية وزينها بثياب مزخرفة وديباج مذهب حتى تفانت فيها النفوس واجتذبت اليها القلوب وبهذا تلاشت

(١) ولد عام ٧٨٨ م فى بلدة على ساحل مالابار فى جنوب الهند وتوفى عام ٨٢٠ م .

تلك الجهود التى بذلها « كرشن » فى سبيل إبراز معالم الحياة الحقيقية وحرمت أمته من ثمار جهوده وكفاحه[1] .

وعلى هذا الأساس يتحدث « جيتا » كثيراً عن الانسان وسعادته ونجاحه ويصور الحياة السعيدة والعبادة المطلوبة والمعرفة الحقيقية بأحسن صور يشبهها بدائرة الشمس التى تدور حولها الكواكب . والجسد الانسانى فى نظر « جيتا » وثيق الصلة بالسجن الذى يستطيع فيه الانسان (المسجون) الانطلاق إلى معرفة الله سبحانه . وقد عبرت عن نفس هذه الحقيقة — الأديان الأخرى بتشبيه القلب بالصومعة والمعبد ، وذلك بغية أن يبتعد الانسان عن الآثام ويتعود على الاخلاص ويتجه إلى الحصول على مرضاة الله خاضعاً اليه وخاشعاً . وليس معناه أبداً أن يترك الانسان دنياه ويزهد عن نعم الله وزينته ، بل يتمتع الانسان بهذه وتلك طبقاً للنواميس الالهية ومقتضياتها ولذلك يقول الزعيم الراحل «غاندى» صراحة :

« لم يدع « جيتا » أبداً إلى « بهاكتى »[2] بل يقول بكل قوة إن الانسان لن ينجح إلا بالعمل وإذا تكاسل أحد عن العمل ورغب بنفسه عن الدنيا فإنه سينتهى مع فنائها . فيضطر كل إنسان إلى العمل سواء رغب فيه أو لم يرغب فيه ، ويقصد بالعمل كل مهنة عملية وفكرية. فإذن يبرز هناك سؤال هام : كيف يتمكن الإنسان من النجاة والتحرر من الأغلال المادية الكثيفة إذا كان ماضيا فى مشاغله الدنيوية . وللإجابة على ذلك يقول « جيتا » : « امضوا فى أعمالكم دون نظر إلى الثمار لأن الإنسان إذا اعتمد عليها كليا فسوف يأخذه اليأس إذا واجه الفشل فيزهد عن جميع الأعمال والأشغال[3] » .

(١) راجع مقدمة إقبال على ديوانه : « أسرارخودى » (أى الأسرار الذاتية) الطبعة الأولى

(٢) الحياة الصوفية التى تدعو إلى الزهد والابتعاد عن الدنيا .

(٣) The Selected writtings of Mahatma Gandhi.

وفى الحقيقةأن « جيتا » يشير الى الجوهر أوالجذور التى يتخذها الانسان نبراساً له وهدفا فى حياته وهى المضى فى الجهاد والكفاح والعمل إلى أن يلفظ آخر أنفاسه.وبهذا كانت هذه التعاليم إضافة جديدة إلى الدين الهندوكى لم تعرف قبل « جيتا » . أما أهمسا (Ahimsa) وهوالصدق ، فكان معروفاً قديما ولكن « جيتا » قد شيد هذا الصرح المتين وأرساه على أسس متينةومبادئ سامية مثل العمل وعدم التفانى فى الملذات وعدم المبالاة بالنتائج .

وبموجب هذه الأسس لم يقصر « جيتا » وظيفة الدين على العبادات فحسب — بل كما قال غاندى : « وسع آفاقه حتى كاد أن يشمل الحياة الإنسانية كلها دون أن يترك ناحية من نواحيها » . وإذا لم يهتم الإنسان بالأوامر الدينية ولم يستهدف مرضاة ربه فانه عصى ربه وانحرف عن دينه . لأن الأحكام الدينية دستور للحياة الانسانية يصون كيانها ويمنعها من الوقوع فى الملذات والمعاصى . وعلى هذا الأساس يحرم « جيتا » بشدة القتل والزنا والكذب .

وقد نشأت فى الهندوكية طبقات كثيرة فيما بعد من أهمها ذكرا « كساتا رياس » (Ksatariyas) وڤاسياس (Vaisyas) وسودراس (Sudras) .

وقد ذكر البيرونى الذى عاصرها أنها نشأت على أساس التفرقة فى الدم والأرومة ، وأنها هى أوجه فارق كبير بين الإسلام والهندوكية . لأن الإسلام لايفرق بين انسان وانسان إلا بالتقوى فى حين أنهم يفرقون بين بنى الانسان على أساس التفرقة العنصرية إذ أنهم قسموا الإنسان إلى أربع طبقات ، واعطوا للبراهمة المكانة الأولى لأنهم — فى زعمهم — خلقوا من رأس «براهم» ولذلك هم نقاوة الجنس وخيرة الانس عندهم . ثم «كشتر » الذين خلقوا بزعمهم — من مناكب « براهم» ثم عد البيرونى طبقات كبيرة وأحطهم شأناً من سموا « هادى » و « دوم » و « جندال » فهؤلاء بمثابة الخدم للطبقات الأولى [1] .

ومما يلفت نظرنا هنا أن الطوائف لم تكن توجد فى عصر « جيتا » بل كانت الأمة آنذاك متحدة وكل قبيلة كانت تحترم القبائل الأخرى كما تعززت بينهم العلاقات والمودة والصداقة عن طريق التزاوج والتناسل فلم تزعم قبيلة أبداً أنها أحسن من قبيلة أخرى أو أنها تنحدر من سلالة شريفة وغيرها من سلالة مرذولة ودنية .

ويدور فى خلدنا ونحن نتكلم عن « جيتا » والدين الهندوكى ما إذا كان دينهم مما أنزل الله عن طريق انبيائه ورسله وعما إذاكان الهند وكيون يعتقدون ذلك ؟ وللإجابة عن ذلك ذهب المفكرون مذاهب شتى ، فذهبت طائفة منهم إلى أنه ليس من المستبعد أبداً أن تكون هذه الكتب منزلة من عند الله وإن لم يمكن القول لذلك على سبيل القطع واليقين .

وقالت طائفة أخرى وعلى رأسهم غاندى : « إن مهمة جيتا لم تكن إلا إضافة بعض التعاليم والتعبيرات الحديثة إلى الدين الهندوكى لكى يساير هذا الدين ركب الحضارة والبيئة والظروف » . ثم أضاف قائلاً « فلا يذهب الظن بالقراء إلى أن هذه التجديدات والإضافات جديدة بحذافيرها ، بل إن مؤلف جيتا إنما عرضها بصورة أكثر وضوحاً مما كانت قبله وبأسلوب أنيق وزخارف بديعة من البيان والبلاغة . » وعلى هذا الأساس يعتقد غاندى أنه هو الآخر مجدد للدين الهندوكى كما هو شأن مؤلف جيتا ، لأن آراءه الحديثة وأفكاره الجديدة لم تكن توجد فى « جيتا » ولا فى كتاب من الكتب الهندوكية على الاطلاق ، بل إنه أضافها إلى دينه بعد الدراسة المقارنة للأديان الأخرى فى ضوء تعاليم جيتا وروحه ، ثم أخذ

---

(١) تحقيق ما للهند ص ٤٨ — ٤٩ .

من الأديان مايصلح ويتلاءم مع طبيعة الدين الهندوكى ومقتضياته فى العصر الحديث (١) .

إن دلت هذه الأقوال على شيء فإنما تدل على أن الرسالات السماوية التى نزل بها الأنبياء إن لم تكن مستحيلة لدى الهندوكين فليست بواجبة بحيث يستحيل على إنسان فى مكانة مؤلف «جيتا» أو «غاندى» أن يأتى بتعاليم جديدة حية وفقاً لمقتضى الظروف . ولعل هذا الاستغناء من جانب الهندوكين فيما يتعلق بالأنبياء والرسل جعل المسلمين يجزمون بأن الدين الهندوكى ينكر النبوة ولا يؤمن بها فى حال من الأحوال . قال البغدادى فى حديثه عن أبى اسحق ابراهيم بن سياد المعروف بالنظام : « إنه أعجب بقول البراهمة بإبطال النبوات ولم يجسر على إظهار هذا القول خوفاً من السيف » (٢) .

ثم اتفق الكتاب والمفكرون المعاصرون على أن الهندوكين لا يؤمنون بالنبوات ، ومن ذلك قول الدكتور طه حسين فى ثنايا حديثه عن أبى العلاء المعرى : « أبو العلاء كان منكراً للنبوّات جاحداً لصحتها . وقد نص على ذلك فى اللزوميات أكثر من مرة » . وذلك بعد أن قرأ فلسفة اليونان والهنود وهم لا يؤمنون بالأنبياء (٣) .

ونحن إذا نظرنا إلى « جيتا » نظرة مقارنة نجده يشابه أقوال الحكماء والفلاسفة والكتب المقدسة للصينيين والمجوس ، ولا غرابة إذا وجدنا فيه أشياء تشبه ما فى التوراة والإنجيل والقرآن أحياناً . لأن هذه الكتب الثلاثة وما يجرى مجراها من صحف ابراهيم ونوح كلها صحف سماوية قد اقتبس منها الحكماء والفلاسفة والمجددون فيما بعد . وهذا التشابه فى الحقيقة يذهب بنا إلى القول بأن النزعات الدينية والنفوس البشرية التواقة إلى تمجيد الله سبحانه وتحميده وتسبيحه انبعثت عن الفطرة التى فطر الله عليها الناس جميعاً ، ولكن الخلافات التى نتجت عن الأغراض الخبيثة هى التى فرقت بين الشعوب وشوهت دين الله وتعاليمه وابتدعت الكثير من الأفكار والآراء .

ونذكر على سبيل المثال بعض هذه النماذج الطيبة التى انفجرت من ينبوع واحد .

قد جاء فى « جيتا » على لسان « كرشن » : « أنا موجود فى كل شيء ؛ أنا الذى ترونه فى الماء لذة وفى الشمس ضياء وفى القمر نوراً وفى البشر حياة وفى النار إحراقاً وفى الأرض برداً » .

وهذا لا يختلف عما قاله جلال الدين الرومى أكبر متصوف لدى علماء الفرس : « أنا الذى ترونه حلواً فى السكر وزيتا فى اللوز وتاجاً على رؤوس الملوك ووجداناً فى الروح وفقراً فى الفقير » . وأيضاً ورد على لسان « كرشن » : « كيفما تعبدنى وأى طريق تسلكه لعبادتى فأنا أجزيك . لأن كل طريق من الطرق يهديكم إلى صراطى المستقيم » . وما أشبه هذا بقول زرادشت « نحن نوافق جميع الأديان التى ظهرت على وجه الأرض فى الماضى ونقرها لأنها أنارت السبل للبشرية إلى الحياة الطيبة التى فيها النجاة والفلاح » . ويقول كنج فتزو (Kung Futzo) من مؤسسى الديانة فى الصين : « إنما جئت بتعاليم جاء بها الأولون ، فلم أخترع شيئاً جديداً » وبوذا أيضاً يقول : « لقد جاء عدد من بوذا — أى المصلحين الدينيين — قبلى فلست وحيداً فريداً فيما أتيت وإنما قصدى أن أنير الطريق أمامكم كما فعل الأولون من قبل » . وكذلك يعتقد كل من آمن « ببوذا » و « جائن » : « أن الهداة والمرشدين إنما جاءوا لهداية البشرية وإصلاحها وإرشادها إلى طريق الهدى وستستمر هذه الجهود وتمضى فى طريقها إلى الأبد » .

---

(١) راجع مقالته فى :
The Selected Writtings of Mahatma Gandhi.

(٢) راجع الفرق بين الفرق ص ١١٣ .

(٣) راجع ذكرى أبى العلاء ص ٣٨٣ .

وأيضاً نجد مثل هذه النصوص أو ما يشبهها فى التوراة : « كل هذه التعاليم قديمة وليس فيها جديد أبداً » .

وفى الإنجيل يقول المسيح : « ولا تظنوا أبداً أنى جئت لأنسخ القوانين السابقة أو أهدم التعاليم القديمة من أساس بل إنما جئت لإصلاح النقص وأملأ الفراغ » .

وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » . (آل عمران : ٨٤) .

ومن أهم المميزات فى « جيتا » أنه يمتاز من الناحية الأدبية أيضاً إذا قارناه بالكتب الأخرى المقدسة لدى الهندوكيين . فانه يمتاز فى الحقيقة بسهولة الأسلوب ووضوح المعانى ورونق الديباج يجذب الآلاف إلى قراءته باندفاع وشوق ورغبة فى حين أن «يوبانيشاد» لا يستطيع فهمه إلا أناس قليلون »[١] .

تلخيص أبواب « جيتا »

يمتاز كل باب من أبواب « جيتا » بما فيه من المثل العليا والقيم الخلقية والمعنوية كما هو قطع رائعة تعبر عن خفايا النفس البشرية ومشاعرها العميقة وخلجاتها الخفية. وقد استطاع مؤلف « جيتا » عرض هذه الخفايا والمشاعر بأسلوب جذاب رائع يأخذ بمجامع القلوب ويحرك اليها النفوس ، كما عبر عن سليقة الهنود فى قرض الشعر بعواطف جياشة رائعة . وناهيك عن النواحى الفنية التى تضارع ما نجد لدى الشعوب العالمية مثل اليونان والرومان من التراث الأدبى الرفيع الخالد .

(١) راجع للتفصيل : كتاب
The Gita and the Quran, by Pandit Sundavlal, p. 6.

الباب الأول

يبتدىء الباب الأول بالحادثة بين « ارجن » و« كرشن » . ارجن يقول « لكرشن » — فى أبيات جميلة رقيقة تستغرق عدة صفحات « ستبيد وتندثر فى هذه المعركة جميع قيمنا وتقاليدنا وآثارنا فلن تعيش نفس بشرية على وجه هذه الأرض تذكر اسمنا وتقوم بسنتنا . فماذا يكون لنا بعدئذ ؟ ألن يكون مصيرنا إلى جهنم بعد هذا الهلاك والدمار ؟ ألم نسمع من آبائنا أن عقائدنا وقيمنا إذا اندثرت وذهبت تحت أدراج الرياح فلن يكون مصيرنا إلا جهنم والنار ؟

الباب الثانى

وهذا الباب يشتمل على رد « كرشن » على «ارجن» الذى ملخصه : « لاتأسف ولا تحزن لاندثار هذه القيم التافهة والتقاليد البالية التى لايميل اليها ولا يستميت لها إلا العميان ومن ضل سبيله ولا يطمح إلى المستقبل الباهر ، لأنها ما هى إلا الضحالة الفكرية والرواسب المادية التى لا طائل تحتها .

ولكن « ارجن » لا يكاد يقتنع بكلامه ويثلج به صدره فالتفت اليه « كرشن » وهو يبتسم ثم قال : « يا « ارجن » لماذا يخيل إلى حينا أنك نضجت فى فكرك وبلغت فيه مستواه ثم يتبين لى بعد حين أنك لم تزل فى المرحلة الأولى مرحلة الطفولة . وفى الحقيقة إذا كنت عاقلاً لاتبالى بكل ما يصيب هذه التقاليدالبالية التى لا بد لها من أن تضيع لأن هذا الكون دائماً متغير متقلب» .

وفى هذه المحادثة تتضح أوجه الفرق بين وجهات نظر « كرشن » و « ارجن » فى مساءلة دهرما (Dharma) أى جلب الخير والرفاهية للجميع إذ يعتقد « ارجن أن دهرما من صميم الدين فى حين يعتقد « كرشن » أنه مجرد خدمة انسانية .

ثم يتعمق « كرشن » فى حديثه عن حقيقة الموت والحياة والفرح والحزن ، ويقول : « إن الخلود لايحرزه

إلا الروح فحسب وأما الجسد الذى يتمتع بزينة الدنيا وزخارفها فسوف يتناثر ولن يبق له أى كيان . ثم بدأ لأول مرة يتعرض لڤيدا وتعاليمه عسى أن تتغير بهوجهة نظر «كرشن» ويستطيع ادراك الحقيقة وجوهر الدين . فوجه «كرشن» نقده إلى ڤيدا على أساس أنه هو المسئول عن تضعيف عقيدة «ارجن» وإضاعة قريحته ونبوغه . لأن «ڤيدا» يحرض الانسان للاقبال على زينة الدنيا وزخارفها والتفانى فيها دون أن يدفع القلوب الانسانية إلى الطموح ، وإلى الخلود . وهذا هوالسبب فى أن من ربط قلبه بڤيدا لا يفكر إلا فى الجنة ونعيمها وراحتها ولذاتها، ولا ينظر دائماً إلا إلى الزخارف والمظاهر البراقة دون أن يولى أى عناية بمعرفة حقيقة الحياة ووظيفة الدين .

وتتلخص تعاليم جيتا فى النقاط الآتية :

(١) ساتڤا (Satva) وهو الطمأنينة (٢) راجاس (Rajas) وهو العمل (٣) تاماس (Tamas) وهو الكسل . ثم أوصى «ارجن» بإن لايلتفت الى هذه التعاليم أبدا . لأنه قد رزق بعقل واسع وفهم سليم. فينبغى له أن يفضل مصالح الناس على مصالحه ورفاهيتهم على رفاهيته وأمانيهم على أمانيه وأهدافهم على أهدافه . ولا يفكر بدأً فى خدمة نفسه ومصلحته بل يكرس جهوده كلها لبنى الانسان ويضحى من أجلهم بكل مافى وسعه من الراحة والطمأنينة فاذا سأله «ارجن» ما هى العلامات البارزة للتميز بين رجل صحيح مستقيم وبين رجل لايدرك ولا يفهم ؛ وأجابه كرشن : «إذا اختلج فى صدرك مايراودك إلى تحقيق رغبة من الرغبات فلا تستجب له أبداً بل يجب أن تقف دونه كصخرة شامخة لا تتزعزع ولاتتزلزل ثم تتجه إلى الله سبحانه ، كما يجب أن تكون دائم السعى فى إقناع قلبك وربط جأشك والتغلب على رغباتك فإذا استطعت ذلك كنت مهتديا وأصبحت شخصية مثالية خالدة . (٢ : ٥٥ — ٧٢) .

الباب الثالث

خطر على بال «ارجن» وهو يستمع إلى حديث كرشن فى التضحية والزهد : لماذا لا يزهد الإنسان عن الدنيا كلياً ما دام يسعى للحصول على النجاة ؟ فقال له «كرشن» من لا يؤدى واجباته فى الدنيا ولا يخدم بنى الإنسان ولا يحاول قضاء مطالبهم وتوفير الأسباب لراحتهم وطمأنينتهم فلن يحرز النجاح ولن يسعد أبداً . لأن هدفه الوحيد فى الدنيا يجب أن يكون خدمة بنى الإنسان» ثم أضاف «كرشن» : امض فى عملك وجهدك بكل رغبة وحماسة دينية ، وإياك والشهوات واياك والغضب ، اجتنب هذين المحظورين كل الاجتناب، ولا تخضع أبداً للانفعالات والعواطف والثورات النفسية ، بل اتجه دائماً إلى الجانب الروحى وتفضيل الفهم على المشاعر مع أنها لطيفة نقية صافية فلن يستطيع الإنسان إحراز النجاة إلا إذا أمكن له تذليل جميع الصعوبات التى يواجهها فى سبيل تغلبه على الرغبات والأمانى (٣ : ٤)

الباب الرابع

جاء فى هذا الباب أن من نسى التعاليم الدينية وخضع للدواعى والرغبات لايستطيع أداء رسالته فى الحياة ، وأن كل من استطاع التغلب على الغضب والبغض والخوف والتمس مرضاة ربه فستنعكس فى قلبه معرفة الله . فالنجاة ليست فى حاجة أبداً إلى العبادات والطقوس والمراسيم وإنما تحصل بعد التغلب على البغض والخوف والغضب . فمجرد العبادة والطقوس تفرق بنى الإنسان إلى شيع وطوائف وتقيم بينهم جسراً من التعصب ، ولذلك كل مسلك يسلكه الإنسان للوصول إلى هدفه وليس فيـه عوج ولا تقصير سوف يرشده إلى ما يرمى إليه» ثم أفصح عن الفرق الأربعة التى نشأت فيما بعد وهى «براهما» و«كستريا» و«ڤاسيا» و«سودار» . فقال : إنها

ليست وليدة الطبيعة بل وظائف قسمها الله فيما بين بنى الانسان وبهذا سيكون هذا التقسيم مما تتطلبه الظروف ولا مندوحة عنه للإنسان .

ثم فسر تلك المبادئ والصفات النبيلة التى ينبغى لكل طائفة من هذه الطوائف الأربعة أن تتخذها نبراساً تهتدى به وتؤدى الأمانة التى حملتها على كاهلها تجاه أمتها وأبناء وطنها فى مجالات الخدمة والتضحية .

ثم أضاف قائلا : « الله يسيرنا كما يشاء وحيث يريد فكل ما نملك فهو فى قبضة يده وتصرفه . وكل مخلص فى عمله لا يبتغى به إلا وجه الله سيعلم أن الله يرى عمله ويتجلى فيه . وهذا ما يعبر عنه بالخلود » .

واختتم جيتا كلامه قائلا : « إن تعاليم «ڤيدا » مثل الزهد والتغلب على الرغبات مع أنه لا يستغنى الإنسان عنها فلن يحرز بها وحدها النجاة والفلاح وإنما يمكن ذلك عن طريق الخدمة الانسانية وسماتها الظاهرة التى هى المساواة والتسامح .

الباب الخامس

نشأ فى قلب « أرجن » نفس السؤال الذى نشأ من قبل أى الطريقين أفضل : المضى فى سبيل الحصول على المعرفة وإصلاح النفس أم بذل الجهود المستمرة فى سبيل إحراز النجاة الروحية والخلود ؟ وهاتان الطريقتان لا تؤديان بالإنســـان إلا إلى غاية واحدة وهى تحقيق أغراضه ومطامعه .ولذلك يدعو « جيتا » إلى طريقة ثالثة وهى الخدمة الانسانية وتكريس الجهود لتحقيق مصالح الآخرين وهى وحدها طريقة سليمة بعيدة كل البعد عن جميع الأغراض والمطامع ورامية إلى الهدف الأساسى . ونتيجة ذلك نجد أن هذا الإنسان المثالى يجاهد مخلصاً صادقاً حتى تتحقق له معرفة الله وتخلد روحه وتنعم فى النهاية .

الباب السادس

ثم أعاد « جيتا » مرة ثانية الحديث عما يوصل إلى النجاة والتقرب إلى الله . كل من لا يهدف فى جهوده وخدماته إلى النتائج والثمرات ويعتقد أنها مسئولية إنسانية أسندت إليه وحملها على عاتقه فهو رجل سنياسى (أى ولى الله) فى نظر « جيتا » . ومن رغب فى المظاهر والاستعراض والتغلب على الرغبات والزهد عن الدنيا والابتعاد عن الأعمال فمثله مثل من يتلاعب بالنار ولن يشم رائحة الإيمان ولن يبلغ مكانة الولاية ، لأن التقرب إلى الله منوط بأعمال القلب وليس له صلة بالمظاهر أبداً .

ويقول « أرجن » لـ « كرشن » وبه ينتهى هذا الباب : « إن التغلب على الدواعى والرغبات ليس بأمر ميسور » . فيقول له كرشن : « لا يمكن ذلك إلا بعد مواجهة تلك الصعوبات وتذليلها بكل شجاعة والتخلى عن جميع الآمال والأمانى والدوافع » .

الباب السابع

يبحث هذا الباب فى الصلة بالله ومعرفته سبحانه ويؤكد أنه موجود فى كل شئ وفى كل مكان . ثم يفرق بين ذاته سبحانه وبين الآلهة التى يتوسل الناس بها إلى الله . ثم يذكر هدفهم فى عبادة هذه الآلهة وتصورات « جيتا » فى خلق السموات والأرض وما فيهما من أنواع الحيـــوان والطيور والنبـــات والإنسان ثم يؤكد « جيتا » أن الله هو الذى جعل الطيور تغرد والبهائم تمشى كما يعتقد أن الله يتجلى فى كل شئ خلقه ، حتى الطين والهواء والنار والأجواء والعقل والفكر وما إلى ذلك . وهو الذى نراه فى الماء حياة وفى الشمس نوراً وفى الأجواء أنغاماً وأغاريد وفى الرجال شجاعة وفى الأرض خصوبة وفى النار شعلة ، وفى « ڤيدا » كلام الله كما أنه المحيي والمميت والأحد والصمد .

ويرى « جيتا » أن بعض الجهلاء لا يعبدون الله مباشرة بل يتوسلون إليه بالآلهة والأصنام وإن كان هذا ضلال وبعد عن التصور الصحيح لله ولكن الله عنده — يقرر هذه العبادات أيضاً ويقبلها ولا يقذف بها عرض الحائط غضباً وسخطاً لأنهم مضطرون وعاجزون ولا يدركون حقيقته حق الإدراك . كما أن الله هو نفسه الذى قرر هذه المظاهر لمعرفته وأرشدهم إليها .

واذا نظرنا إلى ذات الله نجده (سبحانه) منزهاً تنزيها كاملا عن جميع الأشكال والألوان والأشباه والأمثال وهو خالد لا يفنى ولا يزول؛ لا يحيا ولا يموت كما أنه يحيط بنا من كل جانب من يمين وشمال ومن فوق ومن تحت . فإذا بلغ الإنسان هذه الغاية من التصور والتفكير فى الله ، فانه قد وصل إلى غايته . (٧ : ٢٠ — ٢٣)

الباب الثامن

أجيب فى هذا الباب عن سؤال طالما يخطر على بالنا : متى يمكن للإنسان أن يلحق بربه ويصل إليه ؛ سواء كان ذلك فى هذه الدنيا نفسها أو بعد الموت ؟ يقول جيتا : « إن الإنسان لا يستطيع التوصل إليه فى هذه الدنيا فمن أمّل فى الوصول إليه عن طريق عباداته وطقوسه فهو يذهب ظنوناً لن تتحقق أبداً » .

ومما لا شك فيه عند « جيتا » أن الله موجود فى كل شئ وفى كل مكان ويدبر كل عمل ويقدر على إبقاء هذه الدنيا أو افنائها متى شاء وكما أراد . ولكننا لا نستطيع إدراكه بعيوننا ومع أنه نور وضياء لا يحيط به ظلام ؛ فهو حى خالد ليست له بداية ولا نهاية . فالعبـــادات والطقوس التى نؤديها لا تتطلب منا إلا الوصول إلى هذا الحد من المعرفة ، وإلى ذلك دعانا « ڤيدا » وناشدنا وأمرنا .

وفى ختام هذا الباب يناشد « جيتا » أن يتوجه الإنسان دائماً إلى الله وأن يتذكره عند ملاقاة الموت ولا يختلج فى صدره آنذاك إلا ذكراه ولا يخطر على باله إلا وجوده واللحاق به وبهذا يمتاز « جيتا » على « ڤيدا » إذ أن ڤيدا لا يعطى فكرة واضحة عما سيحدث بعد الموت .

الباب التاسع

جاء فيها مامعناه : من غرس حب الله فى قلبه وتعمق فيه سيرى الكثرة فى الوحدة والوحدة فى الكثرة فلن ير إلا وجهه أينما تولى وحيثما التفت وحتى فى الطقوس والمراسيم يشاهده ويرعاه . الله هو خالق كل شئ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو الذى يتجلى ويرعى الأعمال الجليلة مثل التضحية والقوة والسلطان وهو الذى يرسل السماء مدرارا وينبت الأشجار أنواعا.

ومن استجاب لدعوة « ڤيـــدا » فإنه يخطف ثمار جهوده فى هذه الحياة نفسها ، ولكن لن يشم رائحة الخلود والبقاء ؛ لأن النتائج تترتب على حسب النوايا والأهداف . فمن ابتغى الأصنام فلن ير إلا الأصنام ومن خضع للأرواح فلن ينال إلا الأرواح ومن عبد الآلهة فلن يجد إلا الآلهة؛ وكذلك من أحب الله وصلى أمامه فإنه سوف يجده ويناله . وكل ماتقرب به الإنسان إلى الله من الزهور والأعشاب والثمار والمياه بإخلاص ومحبة ورغبة ورهبة فالله يقبله ويقدر النوايا الصادقة التى تكمن فيه .

الباب العاشر

وهذا الباب يعطينا الفكرة عن الله ووجوه ؛ فهو الموجود قبل أى وجود فلا يحدده زمان ولا مكان . لا يحد شئ من سلطانه وآفاقه، بل هو محيط بكل شئ وان لم نستطع نحن ادراكه بعيوننا وأبصارنا . فهو الذى جعل الناس شعوبا وقبائل وطوائف ، وهو يعرف كل المعرفة مايدور فى نفوسنا وما يعلق فى أذهاننا مما أوحى الله به إلينا . وكل من يعقل ويفهم ويسعى إلى معرفته وإحراز النجاة فى الآخرة سوف يتمكن من ذلك . ولا يمكن لنا فى هذه الدنيا أن ندرك وجوده ونبصره إلا بمظاهره وآياته التى تتجلى وتدل على وجوده .

وحاول كرشن أن يفصح عن هذه الحقيقة بتفصيل ووضوح لـ « أرجن » لأنها خلاصة مايبتغيه الانسان وبموجب هذه الحقيقة فإن كل شئ فى هذا الكون يعتبر مظهراً من مظاهر الله يتجلى فيه سبحانه دون أن يتخذ لنفسه لوناً معينا وشكلا محددا .

الباب الحادى عشر

وبعد هذا الخطاب الطويل لكرشن تحطمت أمام « أرجن » غياهب الجهل فبدأ يشعر بوجوده ويؤمن بأن الله يتجلى فى كل شئ . وتغيرت أمامه دنياه فأدرك ببصيرته نور الله الذى يلوح من كل جهة ، ولا يساويه ضياء آلاف من الشموس والأقمار . وهو الذى يتجلى فى عبادة الصالحين من أمثال الرسل والأولياء والزعماء سواء كان هؤلاء من الآريين أو الساميين وهو صديق لكل انسان وأب لكل فرد ، ولكنه منزه عن الأمثال والأشباه . فكل ماتقرب به الانسان إلى الله من العبادات والتضحيات والقرابين حتى كتاب «ڤيدا »لن يوصلنا إلى معرفة الله وإنما يمكن ذلك بالادراك والوجدان والشعور وأبرز علامة على ذلك أن تثلج صدورنا بالطمأنينة والسكينة.

الباب الثانى عشر

وفى هذا الباب سأل « ارجن » عن رجلين أيهما أفضل ؛ واحد منهما يؤدى صلاته وطقوسه ويقدم إلى الله القرابين ، فى حين أن الآخر لا يؤدى مثل هذه المراسيم بل إنما يقضى أوقاته فى الاستغراق فى التفكير فى الله والتماس معرفته وتجنب مايثير غضبه وسخطه وملء قلبه بعظمة الله وجبروته وكبريائه ؟

فأجابه «كرشن» قائلا : « إذا استطعت توجيه جميع أفكارك وعواطفك ومشاعرك وخلجات صدرك نحو صفات الله سبحانه بحيث تعتقد أنه ليس له زمان ولا مكان ولاحياة ولا موت لاتدركه الأبصار ولاتستمع إليه الآذان ولا يطرأ عليه أى تغيير فإنك سوف تصل إلى معرفته وتتخلص روحك من الكثافات وتنعكس عليك أنواره .

ومما يستوجب معرفتنا بالله أن نكون متواضعين ومطيعين غير مستكبرين كما يجب أن نكون له مخلصين عابدين متقربين . وهو يناشدنا أن لا نخاف إلا وجهه فلا نبدى آلامنـــا إلا إذا كنا فى حزن ولا نغالى فى الإعراب عن فرحتنا وبهجتنا إذا كنا مسرورين ومستبشرين بل يجب أن نكون على حال واحد ؛ نحمد الله فيه ونشكره .

أما العبادات الشكلية التى تدعونا إلى الصفات النبيلة الطيبة فلا تفيدنا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

الباب الثالث عشر

وهذا الباب من أهم أبواب « جيتا » إذ يعالج فيه موضوع الفلسفة ويفصح عن حقيقة الروح ووظيفتها وكيفية إدراكها وتصورها . إن مثل الجسد عنده كمثل أرض تحرث وتنبت ثم تجنى ثمارها . فالروح تحتوى على عناصر هامة مثل الحواس الخمسة ، والماء والنار والهواء والصفات الانسانية السامية مثل العزم والثبات والحب والنفور والفرح والحزن . وهذه العناصر هى التى تبعث فيها قوة الانطلاق والاندفاع لتحقيق أغراضها . وهى لا تتراءى لنا بل تكمن فى هذه العناصر وتختفى وراءها تلعب دورها الرئيسى وهى التى نسميها أحياناً العلم والمعرفة والخلود أو الله .

ثم قال « جيتا » — يفصح عن بعض المبادىء التى توصلنا إلى النجاة ولا مناص لنا من اتخاذها نبراساً فى حياتنا حتى تتحقق أهدافنا قال : « كن صالحاً فى الدنيا وابتغ مرضاة ربك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض. فاسع إلى تطهير قلبك من الآثام والأوهام والوساوس وقوّ نفسك ، لكى يذهب عنك الروع والخوف والجبن . وينبغى أن تكون حراً فى أعمالك وتصرفاتك فلا تخضع أبداً للدواعى والرغبات والشهوات والمال والبنين والأرواح ، كما ينبغى أن لا يصرفك عن عزمك شيء من الخوف والحزن أو يضلك عن طريقك الفرح

والسرور والبهجة . فارغب إلى ربك خوفاً وطمعاً وشوقاً ورغبة ، والتمس مرضاته فى كل حين وآن . ولتعلم علم اليقين أنّه يراك ويشاهدك ويراقب تصرفاتك ويستمع إلى أقوالك ويمسكك ، ومع ذلك فهو لا يبدو لنا ولا يتكشف علينا . فهو قريب منا ولكنا لا ندركه ولا نشعر به . والروح عند « جيتا » تشبه الهواء مشابهة كاملة لأنه هو الآخر الذى لا يلوح لنا ولا يتراءى .

الباب الرابع عشر

وهذا الباب يفصح عن أهم العناصر التى تكونت منها الروح مثل : السلم والنشاط والكسل . أما الأول فهو أهم وأحسن عنصر يزود الروح بالفرح والمعارف. أما الثانى فهو : ينابيع حية للعاطفة والانفعال والشوق والرغبة مما يؤدى إلى العمل وبذل الجهود . أما الثالث فيمثل عنده مظاهر الظلام والكثافة التى تترك الناس فى الظلام والجهل والبلادة والرجس . فالمعركة فى الحياة تدور بين هذه العناصر وأيها يكون له النصر والغلبة ولا تظهر ثمار هذه المعارك ولا تبدو نتائجها إلا بعد الوفاة . فاذا استطاع الإنسان أن يسوى بين هذه العناصر الثلاثة وأن يتغلب عليها فقد أحرز النجاح ووصل إلى الغاية . وهذا ما يسمى جناتيتا (Gunatita) .

الباب الخامس عشر

وفى هذا الباب يشبه الدنيا بشجرة هندية اسمها بيبل (Pipal) يقدسها الهندوس ويحترمونها . وصور « جيتا » هذه الشجرة وصلاتها بالانسان فى أسلوب ناصع وبأبيات رائعة تهتز لها أوتار القلوب وتتحرك إليها دخائل النفوس وتفيض بها العواطف وتمتد جذورها إلى أعماق الأرض وترتفع أغصانها وفروعها فوق عنان السماء . وبهذا تعيش هذه الشجرة حياة خالدة .

و «ڤيدا » أيضاً يشبه نضارة هذه الشجرة وغضارتها وخلودها تلك التى لا تهدف إلا إلى راحة الانسان ورفاهيته .

ومن استطاع أن يطفىء شعلة الأنانية والاستكبار والثورة العاطفية ولم يسع ليستمتع بلذات الدنيا ومتعها وكرس جهوده كلها فى ترقية روحه بدون أن يواجه هزيمة من اليأس والألم أو يقف وقفة يسيرة من الهزيمة أو الفشل — فقد نجح نجاحاً كبيراً فى مهمته وسيصل إلى حيث لا يمكن أن تصل الشمس والقمر ولا النور ولا الظلام ولا الرجوع ولا العودة .

الله هو مصدر كل شئ ومنهله ، فقوته التى تنزل إلى السماء وترتفع بالأرواح إلى القمر وتمنع الأرض الخصوبة والرطوبة وتعطى الطاقات الهائلة للكائن الحى فى الأرض وترزق جميع مخلوقاته .

الباب السادس عشر

وفى هذا الباب يقسم « جيتا » الإنسان إلى نوعين : نوع تحررت منه روحه وانفصلت عنه وهذا مايسمى داڤى سامپات (Davi sampat) وآخر ترتبط به روحه ولاتنفصل عنه وهذا مايسمى آرى سامپات (Aurisampat) وللنوع الأول اثنتان وستون ميزة ، فمن تخلق بها شيئاً ولن يدنس بسوء ، بل كان قلبه طاهراً وصافيا طوال رحلته إلى النجاة . ومثل هذا الرجل سيبقى كريماً إلى أقصى حد يمكن أن يحقق أهدافه ومصالح ذويه وأقاربه ، وسيكون دائم السعى إلى الخدمة الانسانية مغرقاً فى القراءة حتى ينكشف الغشاء الكثيف عن قلبه .. وسيكون هذا الرجل مخلصاً وذا هدف كما يكون قلبه طاهراً نقيا من جميع الأرجاس وما إلى ذلك .

والقسم الثانى يحتوى على صفات خبيثة ، منها الاستكبار والادعاء والتفاخر والجهل والغباوة والظلم والطغيان والعجب والخيلاء والبخل . وقد صور « جيتا » هذه الصفات بأبيات جميلة رائعة . وفى رأى « جيتا » أن المرء لايدخل النار إلا لثلاثة أسباب : الشهوة والسخط والحرص أو الطمع .

الباب السابع عشر

وفى هذا الباب وجه « ارجن » سؤالا يسأل فيه كرشن عن رأيه فى رجل يقدم القرابين ويضحى بالنفس والمال ويؤمن بكل ماجاء فى الكتب المقدسة ولكنه لا يعمل ولا يتبع التعاليم ، وفى الإجابة عن ذلك قال « كرشن » إن العقيدة على ثلاثة أقسام :

فهى تنبع أول ما تنبع من صميم الطبيعة أو الفطرة ولكنها تتأثر فيما بعد بعوامل الخير والشر والعاطفة . وطبقاً لهذا الامتزاج تأتى الثمار وتترتب النتائج . فمن امتزجت طبيعته بالشر يتجلى فيه الشيطان بكل مظاهره فلا يمكن التغلب عليه إلا بعد جهاد وكفاح ونضال متواصل ، مع الشر وعن طريق كبح جماح النفس وقمع مطامع الشيطان وتحطيم مكائده وتحقير مطامحه ، وبهذا تتبلور الصفات السامية ولكن الله لا يرضى القسوة والشدة فى كبح النفس واحباطها كما لا يرضى بهؤلاء المجاهدين .

ثم قسم « جيتا » الصفات الانسانية إلى أقسام : مثل كل من قدم إلى الله القربات وأخلص فيها نيته ، ولم يستهدف ثمرة أو غرضاً فهو يسمى ساتوا (Sattua) . ففى هذه الحالة يكون قلبه معلقاً بالله سبحانه وذكراه . وإذا التمس من وراء مطالبه الرياء والطمع فهو يسمى راجاس (Rajas) فاذا تمرن الانسان على مجهودات شاقة ورياضات صعبة لتحقيق مصالحه أو ليحط من شأن أحد وإحباط شهوته فهو يسمى تاماس (Tamas) .

الباب الثامن عشر

وهذا الباب يفسر العبادات والمراسيم التى تؤمن بها طائفة « براهما » وتعتز بها وتتشدد فيها وقد عبر عنها « جيتا » بكلمتين : « الهجر والرفض » . إذا لم يبتغ الإنسان من وراء أعماله وحسناته الثمرة والنتيجة ولم يتأثر بكل ما أصابه من حزن وفرح فقد بلغ مكانة الهجر والرفض .

وقسم « جيتا » المعرفة إلى أقسام :

(١) ساتوك (Sattwick) وهو الإيمان بالله على أنه : أحد خالد غير محدود ويتجلى فى كل شيء .

(٢) راجاس (Rajas) مشاهدة الروح فى كل شيء بألوان مختلفة وأشكال متنوعة .

(٣) ساتوك (Sattwick) الاعتقاد بأن جميع الشعوب فى هذا الكون على ملة واحدة وتربط بينها روابط أخوية وثيقة .

ثم قسم الفرح والسرور إلى أقسام :

(١) ساتوك — السرور الدائم المستمر والراحة الدائمة والطمأنينة واللذة .

(٢) راجاس — السرور واللذة والبهجة فى بادىء الأمر ثم مواجهة الحزن والألم والبكاء .

(٣) تاماس — التمتع بالفرح والسرور فى هذه الدنيا ثم الحزن والألم بعد مفارقة هذه الحياة .

ويختتم « جيتا » كلامه قائلا : إن الطبائع والسجايا فى كل إنسان تختلف بحسب اختلاف تكوينه . ولذلك يضطر الانسان أن يسلك طريقاً توحى إليه به طبيعته . وعوامل مثل هذا الايحاء تكون مبنية على الأسس الآتية : الوطنية أو الطائفية أو العنصرية .

لقد حاولنا قدر استطاعتنا اختصار كل ما ورد فى « جيتا » وتلخيص أبوابه فى إيجاز وتركيز خشية الملل من التطويل .

لقد ألفت أبيات « جيتا » باللغة السنسكرتية التى كانت اللغة الكلاسكية الأدبية فى عصر « جيتا » . فلما أصبحت هذه اللغة صعبة وبعيدة المنال قام بمهمة ترجمتها إلى اللغة الانجليزية عدد من الهندوكيين ومن أبرزهم الأستاذ « هارش تشندر جبتا »[1] (Harish chandrugpta) والأستاذ ف . دوجلس[2] (W. Douglas) كما وضع لها شروحاً وتفاسير كثيرة عدد من الكتاب والباحثين ولذلك قال الباحث الهندوكى الأستاذ « سندرلال » (Sundarlal) : « ما من كتاب مقدس حظى بالشروح والتفاسير قدر ما حظى بها « جيتا » إلا القرآن الكريم »[3] .

---

(١) تسمى ترجمته لـ « جيتا » بالنثر الانجليزى : « The Bhagavat Gita » التى طبعت فى مدينة الله آباد بالهند. (Allahabad, Indian Press) وتقع فى ١٤٢ صفحة .

(٢) لم يكتف هذا الكاتب بترجمته إلى النثر الانجليزى بل أيضاً شرحه وفسره فيقع كتابه الذى طبع فى مدينة مدراس بالهند فى ٢٣٤ صفحة .

(٣) راجع : The Gita and the Quran.